

كتاب الشباب

سر البحيرة الفارغة



أحمد عبدالسلام البقالي

تصميم

مكتبة الميكان

8

E



سِرُّ الْبُحَيْرَةِ الْفَارِغَةِ

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيد

ح مكتبة العبيكان ، ١٤١٧ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي ، أحمد عبد السلام

سر البحيرة الفارغة . - الرياض .

... ص ؛ ... سـ

ردمك ٤ - ٢٦٧ - ٢٠ - ٩٩٦٠

أ - العنوان

١ - القصص البوليسية العربية

١٧ / ٥٥٠٧

ديوي ٨١٣ ، ٠٨٧٢

رقم الإيداع : ١٧ / ٥٥٠٧

ردمك ٤ - ٢٦٧ - ٢٠ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ

الطبعة الثانية - مكررة

١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م

حقوق الطبع محفوظة للناسر

الناسر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

وقفَ الشرطيُّ عبدُ الصمدِ المُعْكَرَطُ يتابعُ ، منْ نافذةِ مكتبهِ ، بمنظارهِ المكبّرِ ، سيارةً عائليّةً كبيرةً كانتْ تتوقّفُ في نهايةِ الشارعِ ، راقبَها حتّى توقفتْ ، ونزلَ منها غلامٌ في نحوِ العاشرةِ ، توجّهَ في الحالِ لمساعدةِ والدِهِ على إنزالِ الأمتعةِ .
والتفتَ الشرطيُّ إلى مساعِدِهِ الشابِّ النشيْطِ رشيدِ العوامِ ، وقالَ لَهُ مشيراً إلى الغلامِ :

- علينا أنْ نضعَ عيناَ على ذلكَ الغلامِ !

فقالَ رشيدٌ متصنّعاً الجِدَّ :

- عيناَ ، يا سيّدي ؟ أيةَ عينٍ : اليمنى أم اليسرى ؟

فوقعتْ صفعَةً الشرطيِّ القديمِ على قفاهُ ، وقالَ معنّفاً :

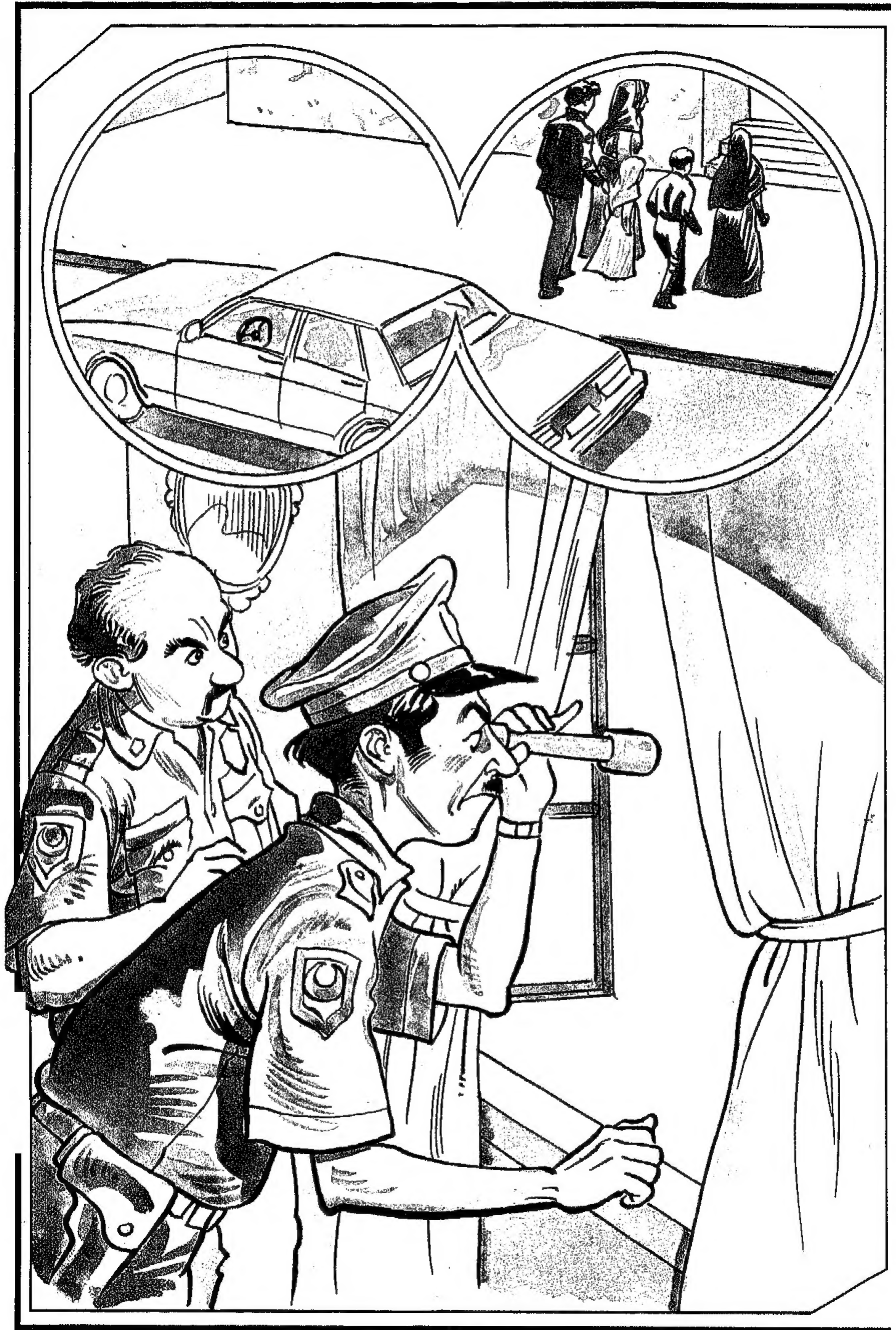
- تُنكّثُ ، يا مغفل ؟ ! مزاجك رائقٌ ؟ ! سترى كيفَ ستقومُ بهذهِ المهمةِ ، وإلاّ اضطررتُ لاقتلاعِ إحدىَ عينيكَ بيديّ ووضعِها على الولدِ يونسَ الفاضليّ ؛ إنّه يتحرّكُ تحركاتٍ

مشبوهةً هذه الأيام، وينفردُ طويلاً على شاطئِ بُحَيْرَةِ
الصخرة .

كَانَ الشرطيُّ عبدُ الصمدِ المعكرطُ مشهوراً في القريةِ
بعبدِ الصمدِ النكيدِ، وبالشرطيِّ السورِيَّالِيّ ؛ لغرابةِ أطوارهِ
وسلوكِهِ البعيدِ عنِ المنطقِ . كَانَ طويلاً نحيفاً جاحظَ العينينِ
مُضحكُ الحركاتِ ، يشكُّ في كُلِّ ما حوله ، ويؤمنُ بأنَّ كُلَّ
شخصٍ مذنبٌ حتَّى تثبَّتَ براءتُهُ ! وبفضلِ هذا الطبعِ العجيبِ
الغريبِ تنقَّلَ عبدُ الصمدِ النكيدُ بينَ عددٍ كبيرٍ منِ مراكزِ
الشرطةِ ، وتركتهُ زوجتهُ التي أعيأها الرحيلُ ، وانتهى به المطافُ
إلى هذه القريةِ الشاطئيَّةِ الهادئةِ ؛ لعلَّ هواءَ البحرِ ورائحةَ
الطحالبِ واليودِ تعيدُ إلى عقلِهِ الاتزانَ . ولولا أنَّه كَانَ مدعوماً
من شخصيَّةٍ كبيرةٍ لكَانَ طُرِدَ منَ الشرطةِ منذُ اليومِ الأوَّلِ !

باتَ يونسُ الفاضليُّ يحلُمُ بأصدقائه أسماكِ البحيرةِ . . .

كَانَ قَدْ عَادَ معَ أبويهِ منَ عطلتِهِمُ الصيفيَّةِ بالجبلِ إلى
قريتِهِمُ الشاطئيَّةِ بعدَ الغروبِ ، فلمْ يتمكَّنْ منَ النزولِ إلى



البحيرة لإطعام الأسماك والاطمئنان عليها .

كان ينزل كل يوم في أوقات فراغه إلى البحيرة حاملاً معه بقايا الطعام ليلقي بها إلى أسماك البوريّ الفضيّة الرشيقة ، ويتفرّج عليها وهي تتسابق إليها وتتخاطفها بأفواهها العريضة ، دون أن تتعارك !

ورغم تشابهها الكبير فقد كان يونس يميّز بعضها عن بعض ، ويطلق عليها أسماء وألقاباً غريبةً يخترعها لها . . . وكان يميّز قادتها الثلاثة وهي تتقدّم أسرابها ، وتقودها بثقة وحزم . وحين تُحسّ بأيّ خطرٍ تتراجع بسرعةٍ خاطفةٍ ، فيتراجع السربُ بأكمله أو ينحرفُ معها بالسرعة نفسها ، وكأنّه قطعة واحدة !

كان ذلك يثير إعجاب يونس الفاضليّ ، ويسليه تسليّة لا مزيد عليها . . . وكان يقضي بجانب البحيرة أوقاتاً طيبةً ، يقرأ وينصتُ إلى الموسيقى الخفيفة من مذياعه المسجل الصغير . وألفته الأسماك ، فلم تعد تخافه ، بل صارت تقترب من ضفّة

البحيرة التي يقف أو يجلس عليها . وكان هو يضع قنات الخبز
في كفه أحياناً ، ويقدمه لها ، فتأكل منه . وتزدحم على يده ،
وتصعد فوقها أحياناً ، فيرفعها فوق الماء ، ويمس ظهورها
بسبابته ، وهي راضية آمنة مطمئنة . . .

وفي تلك الليلة كان شوقه إليها عظيماً ، لدرجة أنه نام وهو
يفكر فيها . . . وتحول تفكيره إلى أحلام ، فرأى الأسماك الفضية
ملونة ، وقد كبرت وسمنت . ورأى نفسه يقدم لها الطعام وهي
تأكل من يده .

وحين انتهى ما كان معه من طعام أخرجت كبرى الأسماك
رأسها من الماء ، وقالت بلسانٍ طليق :

- شكراً ! شكراً !

واندهش يونس ، ولم يذر ما يقول . . . وما كاد يخرج من
عجبه حتى أخرجت سمكة أخرى رأسها من الماء ، وسألته :

- ما اسمك ؟

فوجد نفسه يجيبها ، وقد خفت دهشته :

- اسمي يونس ، يونس الفاضلي .

- ماذا تفعل هناك خارج الماء ؟

- أنا لست سمكة .

- ألا تخاف أن تختنق ؟

- لا . أنا أتنفس الهواء ، وأختنق إذا غصت مثلكن في الماء !

فتضحكت الأسماك ، وقال أصغرهما :

- يا له من مخلوق غريب ! يتنفس الهواء ، ويختنق تحت الماء !

ودخل يونس مع الأسماك في حوارٍ طويلٍ شيقٍ ، وكانهم
جماعة من الأصدقاء القدامى .

وبينما هو كذلك إذ وقف عليه صيادان عملاقان . قال
أحدهما لصاحبه :

- لا بُدَّ أن هذا الغلام مجنونٌ . . . إنه يكلم نفسه !

واحتجَّ يونس :

- أنا لست مجنوناً ! أنا أتكلَّم مع أصدقائي الأسماك !

فضحك الرجلان . وقال الأول :



- ألم أقلها لك ؟ !

وأنزل الأول شبكة من فوق كتفيه، وفتحها، ثم ألقي بها في شكل دائرة وسط البحيرة فوق الأسماك، ويونس ينظر غير مصدق !

وسحب الصياد الحبل، فانقلبت الشبكة على جميع الأسماك التي كانت مجمعة على السطح . . . وجرّها إلى ضفة البحيرة، وأطلعها، فإذا هي عامرة بالأسماك، وهي تصيح وتستغيث بيونس .

وارتمى يونس على الشبكة، يريد أن ينزعها من يد الصياد العملاق، فأمسك به الثاني من قفاه، وتعاون عليه الرجلان الضخمان، ولفّا عليه حبلًا، وكمّاه بخارقة غطّت فمه وأنفه، وربطاه إلى صخرة، وتركاه هناك، وذهبًا . . .

وحاول هو أن يصرخ ويستغيث بأبيه، فلم يستطع، وأحس بالاختناق الشديد، وبانحباس أنفاسه لدرجة الإشراف على الموت !

وبينما هو يكافح للخروج من الحبل، إذ سقط في البحيرة،
فإذا به يستيقظ من نومه، ويجد نفسه نائماً على وجهه فوق
الأرض بجانب سريرهِ، وقد طلع الفجرُ. . . فحمد الله على
أنَّ ما رآه كان مجرد كابوس ثقيل !

وسمع صوت والده يناديه للقيام لصلاة الصبح . . .
وقف يونس وأمه وأبوه وجدته وأخته حسناء والخدام،
كعادتهم، صفوا وراء والده الحاج محمد الفاضلي يؤدون
الصلاة. ولكن ذهن يونس كان يشرذم، ويذهب به إلى البحيرة
وأسمائها. كان يقاوم شوقه إلى الأسماك ليركز في صلاته حتى لا
يذهب أجرها بغياب الخشوع.

وبمجرد انتهاء الصلاة ركض يونس إلى الثلاجة حيث ترك
كيساً من البلاستيك به بقايا طعام كثيرة، وانطلق يعدو صوب
البحيرة.

وحين وقف عليها وهو يلهث كاد قلبه يتوقف للمفاجأة!
كانت البحيرة فارغة تقريباً من الماء. . . كان يتوقع أن يجدها،



كما اعتاد، عامرة إلى حفافها بهاء البحر البلوري الصافي . . .
وبمجرد ما يقع ظلُّه بداخلها تتسابق أسرابُ أصدقائه
وصديقاته من أسماك البوري إلى تحيته، والصعود إلى السطح
للنظر إليه بعيونها المستديرة الجاحظة، وتفتح أفواهها طالبة
منه أن يلقي إليها بما جاء به من شهى الطعام . . .

إلا أنه هذه المرة وجد البحيرة جافة، وقد تراكم الملح على
قعرها لطول غياب الماء، لم يبق من مائها إلا ما احتفظت به
بعض الحفر العميقة والشعاب والأخاديد المتفرعة تحت
الصخور. وكان ماء عكراً ملوثاً بأوساخ جلود الضأن
وأصوافها التي تغسلها النساء فيها، ولا يمكن أن تبقى فيه
سمكة على قيد الحياة.

وأحسَّ يونسُ بخيبة أملٍ شديدة، وانهمرت الدموع من
عينيه. وحاول كبحها ليكون رجلاً، كما كانت تقول له أمه حين
يبكي، فلم يستطع . . .

وأطفأت الدموع حرارة الغصة التي كانت في حلقه، وأحسَّ
ببعض الارتياح، ووجد نفسه يدعو الله لهؤلاء الأصحاب

الذين طالما أحبهم ، واستمتع بصحبتهم ، واستأنس برفقتهم .
وتمنى لو كان يستطيع أن يراهم ثانية ، ولكن . . .

وحين انتهى وهم بالرجوع إلى داره تذكّر كيس الطعام ،
فعاد وأفرغه في أعماق الحفر وأكبرها ، ولم يكذ يدبر ظهره حتى
خيل إليه أنه سمع نائمة حركة داخل الحفرة القذرة . . .
والتفت . . فإذا الماء فعلاً يتحرك ، وإذا فتات الطعام ينجذب
إلى أسفل ، ثم يعود إلى السطح ، وإذا الأسماك الصغيرة تتسابق
إليه وتتجاذبه وتتزاحم حوله . . .

ووجد يونس نفسه يقول بصوت مكبوت :

«يا إلهي ! إنها ما تزال حيّة ! ما تزال حيّة ، رغم كل تلك
القذارة !» .

ونزل إلى قعر البحيرة لينظر إليها من قريب ، فأخرجت هي
رؤوسها لتنظر إليه ، وفتحت أفواهها ، وكأنها تشكو إليه ،
وتستغيث به مما هي فيه من عذاب ! وأخذ يدور حول نفسه
حائرًا لا يدري ما يفعل !

كَانَ مَاءُ الْبَحِيرَةِ يَأْتِيهَا مِنَ الْبَحْرِ الْقَرِيبِ أَيَّامَ الْمَدِّ الْأَعْلَى ،
فِي مَتْنَصِفِ الشَّهْرِ الْقَمَرِيِّ . وَقَدْ بَقِيَ عَلَى مَتْنَصِفِ الشَّهْرِ مَا
يَزِيدُ عَلَى أَسْبُوعٍ . وَفَكَّرَ يُونُسُ أَنَّ الْأَسَاكَ يَسْتَحِيلُ أَنْ تَعِيشَ
فِي ذَلِكَ الْمَاءِ الْعَفْنِ الْأَسَنِ أَكْثَرَ مِنْ سَاعَاتٍ . . .

وخطرَتْ بِبَالِهِ فِكْرَةٌ ، فَتَوَجَّهَ رَاكُضًا إِلَى دَارِهِ ، وَصَاحَ
بِالْخَادِمِ :

- سَعِيدَةُ ! هَاتِي سَطْلِينَ كَبِيرَيْنِ وَاتَّبِعِينِي !

وَكَانَتْ سَعِيدَةُ تَسَاعِدُ أُمَّهُ فِي إِعْدَادِ الْغَدَاءِ بِالْمَطْبَخِ ، فَسَأَلَتْهُ
الْأُمُّ :

- لِمَاذَا تَرِيدُهَا ؟

- سَأَقُولُ لَكَ فِيمَا بَعْدُ .

- إِنَّهَا مَشْغُولَةٌ الْآنَ . أَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَوَجِّلَ مَا سَتَفْعَلُهُ إِلَى مَا بَعْدَ
الْغَدَاءِ ؟

- إِنَّهُ لَا يَحْتَمِلُ التَّأْجِيلُ . . . إِنَّهَا مَسْأَلَةُ حَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ !

وفزعَتِ الأمُّ، ولكنها أذِنَتْ للخادمِ في الذهابِ معه.

وسمَعَ أبوهُ ذلكَ، فوضعَ جريدتهُ، وخرجَ من غرفةِ
الجلوسِ:

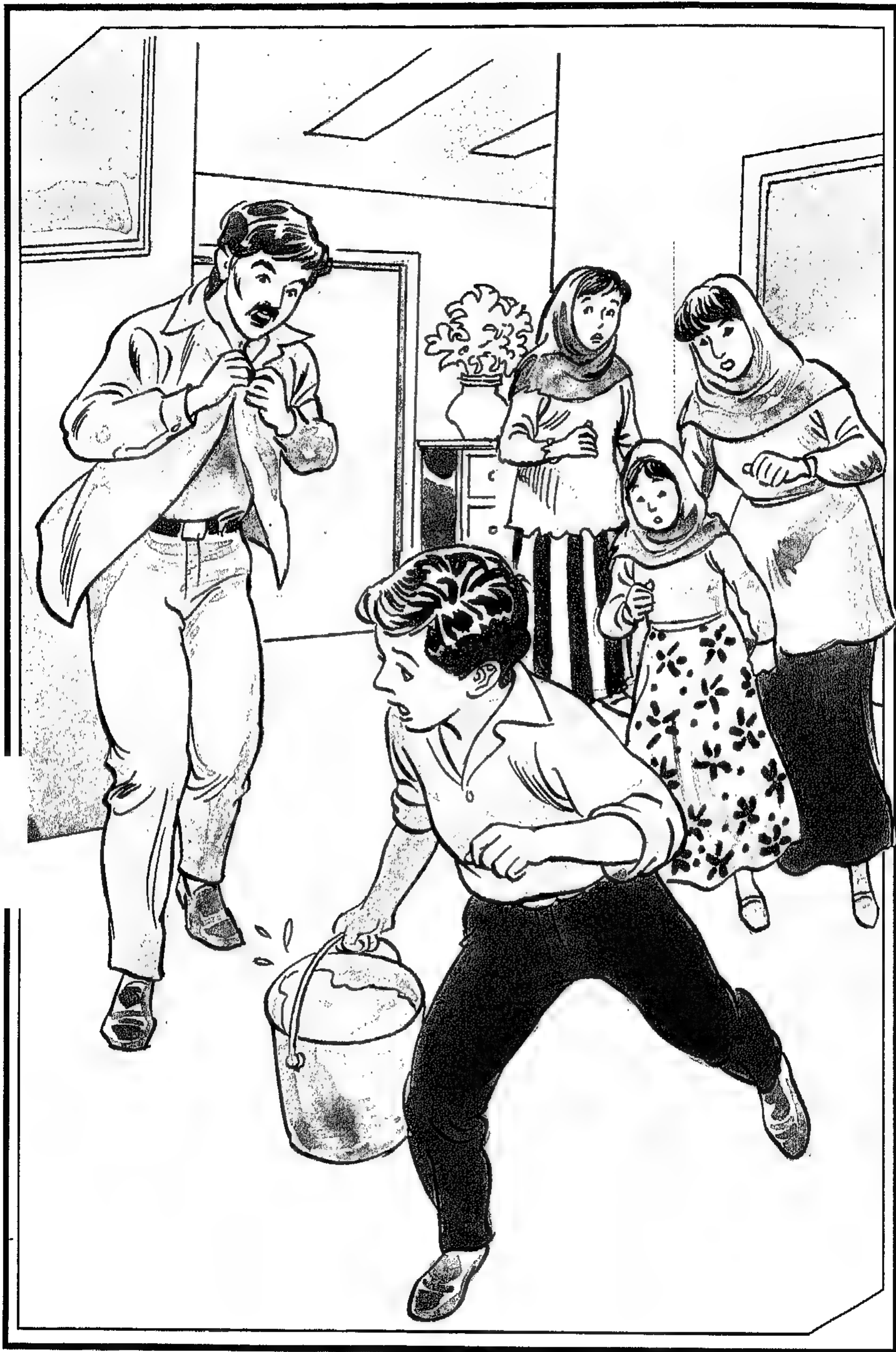
- ماذا يا يونسُ؟

- لا شيء! لا شيء!

- لا شيء!؟ ألم تقل إنها مسألة حياة أو موت؟!

- فعلاً، حياة أسماك البحيرة؛ فقد غار ماؤها، ولم يبقَ منه إلا
قليلٌ ملوثٌ في حفرةٍ بقعرها...

كانَ يونسُ خائفاً من أن يسخرَ أبوهُ منه، ويتهمةُ بالصبيانيةِ
والمبالغةِ، ولكنَّ الرجلَ انشرحَ لاهتمامٍ ولديه بحياة هذه
المخلوقات اللطيفة البريئة البكماء التي لا تستطيع الدفاع عن
نفسها ضدَّ عدوانِ الإنسان! فطالما حدّثه بأنَّ الحيوانَ شريكنا
في كوكبنا، وله الحقوقُ نفسُها التي لنا، وعلينا نحنُ واجبُ
حمايتهِ والمحافظةِ على بيئتهِ نقيّةً طاهرةً. قال الأبُ:



- تعالوا إذن ، ماذا ننتظر ؟ !

وحمل كلٌّ من الثلاثة سطلين كبيرين ، وتوجَّهوا إلى البحيرة .
وكان البحرُ هادئًا كالحملِ الوديع ، وفي أقصى مدِّهِ
الصغيرِ . فتطوَّع الأبُّ بالنزولِ من أعلى الرصيفِ الصخري إلى
مستوى البحرِ ، وأخذ يملأ الأسطال ويرفعها إلى يونسَ
والخادمِ .

وأخذ يونسُ سطلاً فارغاً ، وملاءً من ماءِ الحفرةِ الملوثةِ ،
وذهبَ به بعيداً ، وأفرغهُ في حفرةٍ خاويةٍ . وفعلتِ الخادمُ مثلهُ
حتَّى كادتِ الأسماكُ تكونُ بلا ماءٍ ، وحيثُ أفرغَ سطلاً من الماءِ
الصافي وسطَ الحفرةِ ، وأتبعهُ بسطلٍ آخرَ وآخرَ إلى أن ملاءها .
وأطلَّ بداخلها ، فبانَ له قعرُها ، لصفاءِ الماءِ ونقاؤه . وتنفَّسَ
الصُّعداءُ ، وكأنَّهُ كانَ حابساً أنفاسَهُ !

وخرجتِ الأسماكُ تحتفلُ بذهابِ الماءِ الملوَّثِ وامتلاءِ الحفرةِ
بالماءِ الجديدِ النظيفِ المشبعِ بالأكسجينِ . . .

ولم تمضِ ساعةٌ حتَّى كانَ الثلاثةُ قد تعبوا واحمرت وجوههم

وتصيّبت عرقاً، ولم يمتلئ من البحيرة إلا جزءٌ من قعرِها. فقال
الأبُّ وهو يمسحُ عرقه بمنديلِه:

- أعتقدُ أننا أنقذنا الأسماك الآن. ولكن ما فعلناه لا
يكفي. أنا أظنُّ أن البحيرة موصولةٌ بالبحرِ من مكانٍ ما
بقعرِها. فليس من المعقول أن يغورَ ماؤها لهذه الدرجة بفعلِ
التبخّرِ وحدَه! وهي كثيرةُ المغاورِ والشقوقِ. ومن الصعوبةِ
العثورُ على الثقوبِ التي يتسرّبُ الماءُ منها إلى البحرِ.
قال يونسُ:

- لذلك علينا أن نقنّع بملئِها حتّى يأتي موعدُ المدِّ الأعلى،
ويملاها الموجُ.



ورغمَ سعادتهِ بإنقاذِ الأسماكِ نامَ يونسُ مشغولَ البالِ بالثقبِ
الذي ينفذُ منه ماءُ البحيرةِ إلى البحرِ؛ فبدونِ العثورِ على الثقبِ
وإغلاقهِ ستبقى المشكلةُ بلا حلٍّ أبداً. وكلّما تأخّرَ المدُّ الأكبرُ
غاضَ ماءُ البحيرةِ أكثرَ، وتعرّضتِ الأسماكُ للموتِ اختناقاً.

واختلط تفكيرُ يونسَ بأحلامِهِ ، وانخرطَ في نومٍ عميقٍ .
وأيقظَهُ أذانُ الفجرِ ، وأحسَّ بيدَ جدَّتِهِ الحنونِ على خَدِّهِ
وهي توقظُهُ للصلاةِ . وبقيَ هو في فراشه ينصتُ إلى صوتِ
المؤذِّنِ الرخيمِ في هدأةِ الليلِ ، وهو يردُّدُ : « الصلاةُ خيرٌ من
النومِ » .

وخيلَ إلى يونسَ أَنَّهُ يسمعُ بينَ الفقرةِ والفقرةِ صوتَ شيءٍ
بعيدٍ لم يستطعَ تمييزَه . . . وسكتَ المؤذِّنُ ، وسادَ هدوءٌ مطلقٌ ،
فأصاحَ بسمعِهِ إلى الصوتِ الغريبِ البعيدِ ، فإذا هوَ خريزُ
ماءٍ . ولمعتَ في ذهنِهِ فكرةٌ جديدةٌ فقفزَ من سريره ، وتوجَّهَ إلى
الحمامِ ، فتوضَّأَ وانضمَّ إلى صفِّ المصلينَ وراءَ أبيهِ ، تتجاذبهُ
فريضةُ الخشوعِ والرغبةُ الملحةُ في تنفيذِ الفكرةِ الطارئةِ . . .

ولم تكِدِ الصلاةُ تنتهي حتَّى انطلقَ يونسُ يعدُّو نحوَ
البحيرةِ . وكانَ هدوءُ الصباحِ شاملاً ، والجوُّ صافياً صفاءَ
المرايا ، والبحرُ نائماً بلا حراكٍ . . . ونزلَ يونسُ إلى قعرِ البحيرةِ
التي كانَ عمقُها يزيدُ على مترينِ ، وقصدَ الحفرةَ التي ملأوها

بالأمس ، فوجد ماءها قد نقص نصفه .

ووقف ينصت ، ثم انبطح على أرض البحيرة اليابسة ،
وأرهف سمعه فإذا خرير الماء الذي سمعه في نومه يأتي من
أحد الشقوق العميقة في قاعدة البحيرة . واقترب من الشق
فزاد صوت الخريِر وضوحًا ، فوقف وهو يكاد يطير من
الفرح . . .

وعاد راكضًا إلى بيته ، فوجد والدته يسقي الحديقة ، فبادرته
لاهنًا بدون مقدمات :

- وجدتها! وجدتها، يا أبي !

- ماذا وجدت ؟

- الفجوة التي يتسرب منها ماء البحيرة إلى المحيط !

- حقًا ؟

وكاد يقسم بالله ، لولا أنه تذكر نصيحة والده بعدم القسم
على التوافه ، متذكرًا الآية الكريمة ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً



لأَيِّمَانِكُمْ ﴿١٠﴾ ، فقال :

- حَقًّا يَا أَبِي . وَقَدْ نَزَلَ مَاءُ الْحَفْرَةِ الَّتِي لَجَأْتَ الْأَسْمَاكَ إِلَيْهَا إِلَى نَصْفِهَا . وَعَلَيْنَا أَنْ نَعِيدَ مَلَأَهَا .

وَنَزَلَ الثَّلَاثَةُ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى الْبَحِيرَةِ ، وَانْتَقَلَتْ عِدْوَى الْحِمَاسِ إِلَى الْأُمِّ ، فَتَبِعَتْهُمْ هِيَ كَذَلِكَ ، تَحْمِلُ سَطْلِينَ وَتَصِيحُ خَلْفَهُمْ :

- انْتَظِرُونِي !

وَنَزَلَ الْأَبُ إِلَى قَعْرِ الْبَحِيرَةِ ، وَاقْتَرَبَ مِنَ الشَّقِّ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ يُونُسُ ، وَأَنْصَبَتْ فَلَمْ يَسْمَعْ شَيْئًا . . . كَانَ قَلْبُهُ يَدُقُّ فِي أُذُنِهِ فَيَحْجُبُ عَنْهُ الْخَرِيرَ . وَأَنْصَبَتْ الْخَادِمُ الصَّغِيرَةُ ، فَقَالَتْ مَتَحَمْسَةً :

- نَعَمْ يَا سَيِّدِي ! إِنَّهُ خَرِيرُ مَاءٍ يَتَسَرَّبُ بَعِيدًا دَاخِلَ هَذَا الشَّقِّ .

وَجَاءَ يُونُسُ بِسَطْلٍ مَاءٍ ، وَصَبَّهُ دَاخِلَ الْحَفْرَةِ ، وَانْتَظَرَ قَلِيلًا ، ثُمَّ قَالَ لِأَبِيهِ :

- أَنْصِتِ الْآنَ .

وَأَصْغَى الْأَبُ ، ثُمَّ قَالَ مَتَحَمُّسًا :

- الْآنَ أَسْمَعُهُ .

وَاقْتَرَبَتِ الْأُمُّ ، وَأَنْصَتَتْ ثُمَّ عَلَّقَتْ :

- مِنْ هُنَا إِذْنُ يَتَسَرَّبُ الْمَاءُ ، وَيَفْرُغُ الْبَحِيرَةُ عَنِ الْأَسْمَاكِ
الْمُسْكِينَةِ !

وَمَلَأَ الْأَرْبَعَةُ الْحَفْرَةَ بِهَاءٍ جَدِيدٍ ، وَمَا كَادُوا يَنْتَهَوْنَ حَتَّى كَانَ
الْجَمِيعُ قَدْ اقْتَنَعُوا بِضَرُورَةِ إِغْلَاقِ الشَّقِّ .

وَبَعْدَ الْإِفْطَارِ خَرَجَ الْحَاجُّ مُحَمَّدٌ الْفَاضِلِيُّ ، وَعَادَ بِنَاءَ شَابِّ
اسْمُهُ عَبْدُ الْقَادِرِ ، وَمَعَهُ أَدَوَاتُهُ وَكَيْسُ إِسْمَنْتٍ فِي عَرَبِيَّةٍ نَقْلٍ
يَدْوِيَّةٍ .

وَلَمْ تَمْضِ سَاعَةٌ حَتَّى كَانَ الشَّقُّ قَدْ أُغْلِقَ تَمَامًا . وَأَنْصَتَ
الْبِنَاءُ الشَّابُّ إِلَى شَقَوقِ أُخْرَى مُجَاوِرَةٍ فَلَمْ يَسْمَعْ خَرِيرًا ، فَقَالَ
مُؤَكَّدًا :

- لن تفرغ البحيرة بعد اليوم .

ورفض أن يتقاضى أجره قائلاً :

- هذا عملٌ لله ، وأجري عليه عنده ، إلى جانب أنني أنا كذلك أحبُّ الجلوسَ على ضفةِ هذه البحيرة الجميلة والتفرُّج على أسماكها ، وأقلُّ ما يجبُ أن نحافظَ عليها عامرةً بالماء النقي .

ودعاه الحاجُّ محمدُ الفاضليُّ للغداءِ معهم ، فقبلَ مسروراً .
وأثناءَ الغداءِ لاحظَ يونسُ أنَّ أخته الصغيرة حسناء كانت تُصِّصُ عصيراً بجُعبَةٍ منْ علبة بلاستيك ، فخطرَتْ له فكرةٌ .
والتفتَ إلى عبدِ القادرِ البناءِ سائلاً :

- هل تستعملون مضخاتِ الماءِ في البناءِ ؟

- أحياناً ، حينَ يكونُ الأساسُ عميقاً ويرشُّ ماءً .

وأدركَ والدهُ الهدفَ منْ سؤالِهِ ، فسألَ البناءَ :

- هل يمكنكُ أنْ تحصِّلَ لنا على واحدةٍ ؟

- بسهولة . لماذا ؟

ولم يتمّ السؤال حتّى فهم هو الآخر الهدف ، فأضاف :

- فكرة جيدة .

وبعد الغداء الشهيّ وكؤوس الشاي المنعشة ، استأذن
عبدالقادر البناء في الذهاب .

ولم تمض ساعة على غيابه حتّى رنّ جرس الباب ، فإذا هو
نفسه يسوق ناقلة أمتعة صغيرة ، وعليها مضخة كبيرة ذات
خرطوم طويلة واسعة . ونظر إليها يونس غير مصدق عينيه ،
ونزل يلمسها . ويسأل عن صبيها في الثانية .

وصاح بأبيه ، فخرج هذا ، ونظر إلى المضخة ، فلمعت عيناه
سرورًا بها وحماسًا لاستعمالها في أقرب وقت .

وتبع الجميع الناقلة وهي تسير على مهل بين الصخور إلى أن
وصلت إلى حفاف الرصيف الصخري الذي يفصل البحيرة عن
البحر . وتعاون الجميع على حمل المضخة الثقيلة ، ووضعوها
على صخرة ملساء ، وأدلوأ أحد خرطومها في البحر والثاني في .

البحيرة . وكان خزانها مليئًا بالوقود ، وجذب عبدُ القادرِ حبلَ
المضخة بقوة ، فعملَ محركُها . ولم تمضِ ثوانٍ على دورانه حتَّى
اندفعَ الماءُ بقوة هائلةٍ من الأنبوبِ الواسعِ صوبَ قعرِ البحيرةِ
الناشفِ الظمآنِ . . .

وقفزَ يونسُ فرحًا ، ثمَّ نزعَ حذاءه ، ونزلَ إلى البحيرة ،
وعرَّضَ قدميه لصيبِ الماءِ المتدفقِ سعيْدًا ببرودتيهِ ودغدغتيهِ
للقدمينِ . . .

ومن وراءِ صخرةٍ كانَ الشرطيُّ عبدُ الصمدِ يراقبُ العمليةَ
بمنظارهِ المقرَّبِ بارتياحٍ شديدٍ ، ويدعو مساعده الشابَّ
رشيْدًا للمراقبة . . .

واشتغلتِ المضخةُ بدوْنِ انقطاعٍ حتَّى أذانِ المغربِ . وأصرَّ
عبدُ القادرِ على البقاءِ بجانبِ المضخةِ إلى أن يتغطَّى قعرُ
البحيرةِ على الأقلِّ .

وبعدَ صلاةِ العشاءِ جاءَ يونسُ بطعامِ العشاءِ ، وجلسَ
يتعشى معه ، ويتفرَّجُ كالمخدِّرِ على الماءِ وهو يرتفعُ ببطءٍ عقربِ



الساعة . كانَ سطحُ الماءِ عبارةً عنَ مرآةٍ تزدادُ اتساعًا مع مرورِ الدقائقِ والساعاتِ ، وكانَ النظرُ إليها تحتَ ضوءِ النجومِ الخافتِ يريحُ النفسَ ويبعثُ في الذاتِ خدرًا لذيذًا . . .

ووقعتُ عينُ يونسَ على بقايا الطعامِ ، فقامَ ورمى بها في البحيرةِ الهادئةِ . ولم تمضِ إلا ثوانٍ حتَّى أحاطتْ بها الأسماكُ من كلِّ جانبٍ ، وأخذتْ تتجاذبُها بشهيةٍ مفرطةٍ . . .

وبينما هما كذلكُ إذ فوجئًا بضوءِ مصباحٍ قويٍّ تسلَّطَ عليهما وبصوتِ رجلٍ خشنٍ أمرٍ يصيحُ فيهما :

- لا تتحركَا ! الزمَّا مكانكما وارفعَا أيديكما !

ووقعَ الضوءُ على وجهِ يونسَ فرمشت عيناهُ ، وأظللها بيدهِ اليمنى . وانتقلَ الضوءُ إلى وجهِ البناءِ الشابِّ ، فنطقَ أحدُ الرجلينَ :

- إنه عبدُ القادرِ البناءِ ، ومعه يونسُ ولدُ الحاجِّ محمدِ الفاضليِّ .

وأسكتَ عبدُ القادرِ المضخةَ لسمعَ ما سيقولُه الزائرانِ الليليَّانِ . قالَ أكبرُهُما سنًا :

- أَنْتُمْ مَقْبُوضٌ عَلَيْكُمْ !

فاستعاذَ عبدُ القادرِ باللهِ بصوتٍ خفيضٍ ، وقالَ ليونسَ :

- إِنَّهُ الشَّرْطِيُّ المَجْنُونُ ، عبدُ الصَّمَدِ النُّكْدُ !

ورفعَ صوتهَ سائلاً :

- وَلَكِنْ لِمَاذَا ؟

فقالَ الشرطيُّ العَكِيزُ المزاجِ باحثاً عن سببٍ معقولٍ :

- لِمَاذَا ؟ ! تريدُ أَنْ تعرفَ لماذا نَقَبْضُ عَلَيْكُمْ ؟ ! لقولِكَ لِمَاذَا !

هَذَا لِمَاذَا ! رجلُ الأَمَنِ لَا يُسْأَلُ لِمَاذَا يَفْعَلُ هَذَا أَوْ يَتْرُكُ ذَلِكَ .

وضحكَ رشيدٌ ، فَسُمِعَتْ ضَرْبَةٌ عَلَى ظَهْرِهِ ، وصوتُ

عبدِ الصَّمَدِ يَصِيحُ فِيهِ :

- اخْرَسْ !

وتدخَّلَ رشيدٌ :

نَقَبْضُ عَلَيْكَ بِتُهْمَةِ إِقْلَاقِ رَاحَةِ السَّكَّانِ .

فصَحَّحَهُ عَبْدُ الصَّمَدِ بِصَفْعَةٍ عَلَى قَفَاهُ:

- نَقَبُضْ عَلَيْكُمَا . . .

فَهَمَسَ رَشِيدٌ:

- لَا نَسْتَطِيعُ الْقَبْضَ عَلَى الْوَلَدِ الصَّغِيرِ. فَذَلِكَ مُخَالَفٌ
لِلْقَانُونِ!

فَسَمِعَتْ خَبِطَةً أُخْرَى وَصَوْتُ النُّكْدِ يِعَاتِبُ مَسَاعِدَهُ:

- تُظْهِرُ عَلَيَّ عِلْمَكَ، يَا وَلَدُ؟ الْقَانُونُ هُنَا هُوَ أَنَا! وَسَنَقْبُضُ
عَلَيْهِمَا مَعًا. فَهَمَسَ يُونُسُ لِعَبْدِ الْقَادِرِ:

- ابْقِ أَنْتَ مَعَهُمَا. أَنَا ذَاهِبٌ لِأَخْبِرَ وَالِدِي.

وَاسْتَغَلَّ تَحَرُّكَ الشَّرْطِيِّينَ لِلْقَبْضِ عَلَيْهِمَا وَابْتِعَادِ الضُّوءِ،
وَاخْتَفَى بَيْنَ الصَّخُورِ بَعِيدًا عَنِ قَبْضَةِ النُّكْدِ. وَوَقَعَ ضَوْءُ فَنَارِ
رَشِيدٍ عَلَى ظَهْرِ يُونُسَ فَأَبْعَدَهُ عَنْهُ فِي الْحَالِ، لِيَتِيحَ لَهُ فُرْصَةٌ
الْإِفْلَاتِ.

وفي طريق عبد الصمد للقبض على عبد القادر عثر في
حجر، ووقع في البحيرة، فانطفأ فواره، وابتل المسدس .
وسلط عليه مساعدُه فواره، فإذا هو واقِع على وجهه وسط
البحيرة، يحاول الوقوف ويشهق لبرد الماء، ويبحث عن قبَّعته
الرسمية، ويسبُّ من كانوا السبب في عمله بهذه المهنة التعسة
التي لم يلق منها خيراً أبداً!

وجاهدَ مساعدُه الشابُّ لكبتِ قهقهته حتى لا يزدادَ رئيسُه
غيطاً وحنقاً عليه، فتحول ضحكُه إلى شهيق عميق كالبكاء،
فصاح فيه عبد الصمد:

- هاتِ الفنارَ، وابحثْ معي عن القبة.

ووجدَها رشيدٌ طافية على جانبِ البحيرة، فالتقطَهَا وقالَ
لرئيسه:

- ها هي، يا سيدي . . . ها هي قبعتك.

وخاضَ عبد الصمد في الماء إليه، فتعمَّدَ هذا أن يضع
القبة على رأسِ رئيسه عامرةً بالماء . . .

وسُمعتْ شهقةٌ عاليةٌ ثمَّ ضربةٌ صماءٌ وقهقهةٌ مكبوتةٌ !

وانتقلَ عبدُ القادرِ إلى ضفةِ البحيرةِ الأخرى ليساعدَ الشرطيَّ على الخروجِ . ولكنَّ هذا رفضَ يده وأمسَكَ بيدِ مساعدهِ رشيدِ . وما تمكَّنَ منها حتَّى جذبهُ بقوةٍ إلى الماءِ ، ووقفَ يضحكُ ضحكًا عاليًا مجروحًا كصراخِ الديكِ . . .

ونخلعَ الشرطيَّانِ ملبسَهُما الرسميَّةَ الصيفيَّةَ الخفيفةَ ، وأخذَا يعصرانِها ، وعبدُ الصمدِ يلومُ عبدَ القادرِ ، ويحمِّلهُ مسؤوليةَ كلِّ ما حدثَ ، ويطلبُ منه أنْ يذكرهُ في مركزِ الشرطةِ ليضيفَ حادثَ السقوطِ إلى سلسلةِ التهمِ التي ينوي توجيهَها إليه ، وعلى رأسِها فرازُ يونسَ ، ووجودُ البحيرةِ ، وظلامُ الليلِ ، و . . .

وحينَ ارتدَّى الشرطيَّانِ بذلتَيْهِما صاحَ عبدُ الصمدِ في عبدِ القادرِ البناءِ :

- هيا ! نِرْ أماننا . . .

فقالَ البناءُ ببرودةٍ :

- لا .



فسأل عبد الصمد مستنكرًا غاية الاستنكار:

- ماذا قلت ؟!

- قلتُ : لا.

فانبسطت أسارير النكد، وظهر عليه سرورٌ عظيمٌ، وأخذ
يردد متعجبًا :

- إنه قال لا! أسمعت، يا رشيدُ!؟ الآن حصلنا على تهمةٍ من
الدرجة الأولى، ستضمنُ لنا وضعَ هذا المجرم الخطير وراء
القضبان بقية حياته، إذا لم يكن أكثر. إنها تهمةٌ قد تؤدي إلى
ثلاثة إعداماتٍ على الأقل! وبعد ذلك السجن مدى
الحياة، إذا لم يكن المؤبد أو أطول من ذلك !

فسأل رشيدٌ مسترشدًا :

- أية تهمةٍ، يا سيدي؟

- مقاومةُ الاعتقال ومنعُ رجل الأمن من أداء واجبه .

- إنها تهمةٌ خطيرةٌ حقًا، يا سيدي . . .

ثمّ التفتَ إلى عبدِ القادرِ:

- ماذا تقولُ يا عبدَ القادرِ؟

- أقولُ لا، وأعيدها ! لن أذهبَ معكم! فمنُ أحقُّ بالطاعة،

اللهُ تعالى أو السيدُ عبدُ الصمدِ؟!

ووقعَ الشرطيّانِ في حَيْرَةٍ. وسألهُ رشيدٌ :

- ماذا تعني؟

- أعني أنني إذا ذهبتُ معكم تركتُ المضخّةَ هنا معرضةً

للتخريبِ أو السرقةِ وهي ليست لي، بل للحاجِّ حمادي

الريفي الذي أعارني إياها لوجهِ الله، تصدّقاً منه على أسماكِ

البحيرة. واللهُ تعالى يقولُ في كتابهِ العزيزِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ

أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ

تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ صدق الله العظيم.

ووقفَ بين الشرطينِ كالعملاقِ متحدّياً إياهم أن ينقضّ

كلمةَ الله.

وتردد عبد الصمد واحتار، وأخذت عيناه الجاحظتان
تتحركان من اليمين إلى اليسار، وهو يبحث عن حل لهذه
المعضلة. وأخيراً قال، وقد استولت عليه شهوة الانتقام وعزة
السلطة:

- ذلك أحسن، ستنال عقابك في هذه الدنيا على أيدينا، ثم
تنال جزاء فعلتك في الآخرة إن شاء الله!

وأطلق ضحكة زاعقة، شقت ظلام الليل، وأفزعت
الأسماك في البحيرة، فقال رشيد منقذاً رئيسه من قراره
المجحف:

- عبد القادر معه حق...

وما كاد عبد القادر يتسم سعيداً حتى أضاف رشيد:

- ولكنه نسي الآية الكريمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله
وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾.

فبهت عبد القادر، ووقع في حيرة، ووقف ينظر إلى رشيد
فاغراً الفم، فتقدم عبد الصمد منه وقال منتصراً:

- إذن بطلت حجتك ، ولم يبق لي إلا أن أمسك بزمامة قفاك
وأقتادك إلى المركز! وأمسك بقفاه ، وهم يسحب ، فأفلت منه
عبد القادر ، وارتمى على المضخة وعانقها ، ولف ساقيه
حولها ، فاستسلم رشيد للقهقهة المكبوتة حتى انهمرت
دموعه ، ولم يعد يرى شيئاً . . .

وحاول عبد الصمد فصل عبد القادر عن المضخة فلم
يُفلح ، فنادى مساعده ناهراً شامئاً ، فأقبل هذا يمسح دموعه ،
وأخذ يحاول فك ساقي عبد القادر عن المضخة بكل قواه فلم
يستطع . كان جسد عبد القادر القوي الملوخ بالشمس قد
أصبح طرفاً من الآلة . . .

وحين يش من انتزاعه قال لرئيسه :

- لعل مع صاحبنا هذا شيئاً من الحق كذلك .

فتوقف عبد الصمد عن الشد والسحب ، ووقف لاهثاً
يسأل :

- ماذا تعني ؟

- حَجُّنَا عَلَيْهِ هِيَ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا
اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. فطاعةُ اللهِ أَسْبَقُ
مَنْ طَاعَةَ الرَّسُولِ وَأُولِي الْأَمْرِ الَّذِينَ هُمْ نَحْنُ. أَعْنِي أَنْتُمْ،
يا سيدي . . .

وانتَعَشَ أَمَلُ عَبْدِ الْقَادِرِ فِي الْإِفْلَاتِ مِنْ غَضَبِ النُّكْدِ،
وَلَكِنَّ وَكْزَةً قَوِيَّةً نَزَلَتْ عَلَى ظَهْرِ رَشِيدٍ مَصْحُوبَةٍ بِصِيحَةٍ
عَبْدِ الصَّمَدِ:

- مَنْ طَلَبَ رَأْيَكَ؟!

وَارْتَمَى عَلَى عَبْدِ الْقَادِرِ، وَأَخَذَ يَعْضُ يَدَيْهِ وَسَاعِدَيْهِ وَذِرَاعَيْهِ
لِيَتْرَكَ الْمَضْحَكَةَ، وَهَذَا يَصْرُخُ مِنَ الْأَلَمِ وَيَسْتَغِيثُ، دُونَ أَنْ يَتْرَكَ
الْآلَةَ!

وَخَافَ عَبْدُ الصَّمَدِ أَنْ يَسْمَعَهُ بَعْضُ سُكَّانِ الْمَنَازِلِ الْقَرِيبَةِ،
وَقَدْ يَكُونُ مَنْ بَيْنَهُمْ أَحَدٌ مُجَانِنٍ حَقَّقَ الْإِنْسَانَ أَوْ صَحَافِيٍّ أَوْ
مَحَامٍ، فَأَخْرَجَ مِنْدِيلَهُ، وَكَمَّمَهُ بِهِ، وَعَادَ إِلَى مُحَاوَلَةِ اقْتِلَاعِهِ،
دُونَ فَائِدَةٍ!

وكفَّ رشيدٌ عن مساعدة عبد الصمدِ ، ووقفَ ينفُضُ يديه
وقالَ :

- لن نقتلعه من هناك ولو أحرقناه!

فلمعت عيناً عبد الصمدِ ، وزادتْ جحوظاً ، واستولى عليه
شيطانُ القسوة والشرِّ ، وقالَ :

- واللهِ إنها فكرةٌ! سنوفرُّ عليه وعلى أنفسنا تعبَ القبض عليه ،
وإلقاؤه في السجن ، ثم محاكمته . هكذا أفضل . . . نعم!

وجاء بفنارِ الغازِ من فوقِ الصخرة ، وفتحَ خزانة ، وأخذَ
يصبُّ الغازَ على رأسِ عبدِ القادرِ . وارتاع رشيدٌ ، وكفَّ عن
المزاح ، وقالَ :

- إنَّكَ لا تنوي إحراقه !

فالتفتَ إليه عبدُ الصمدِ وابتسامه شيطانٍ في عينيه ، وقالَ
متحدياً :

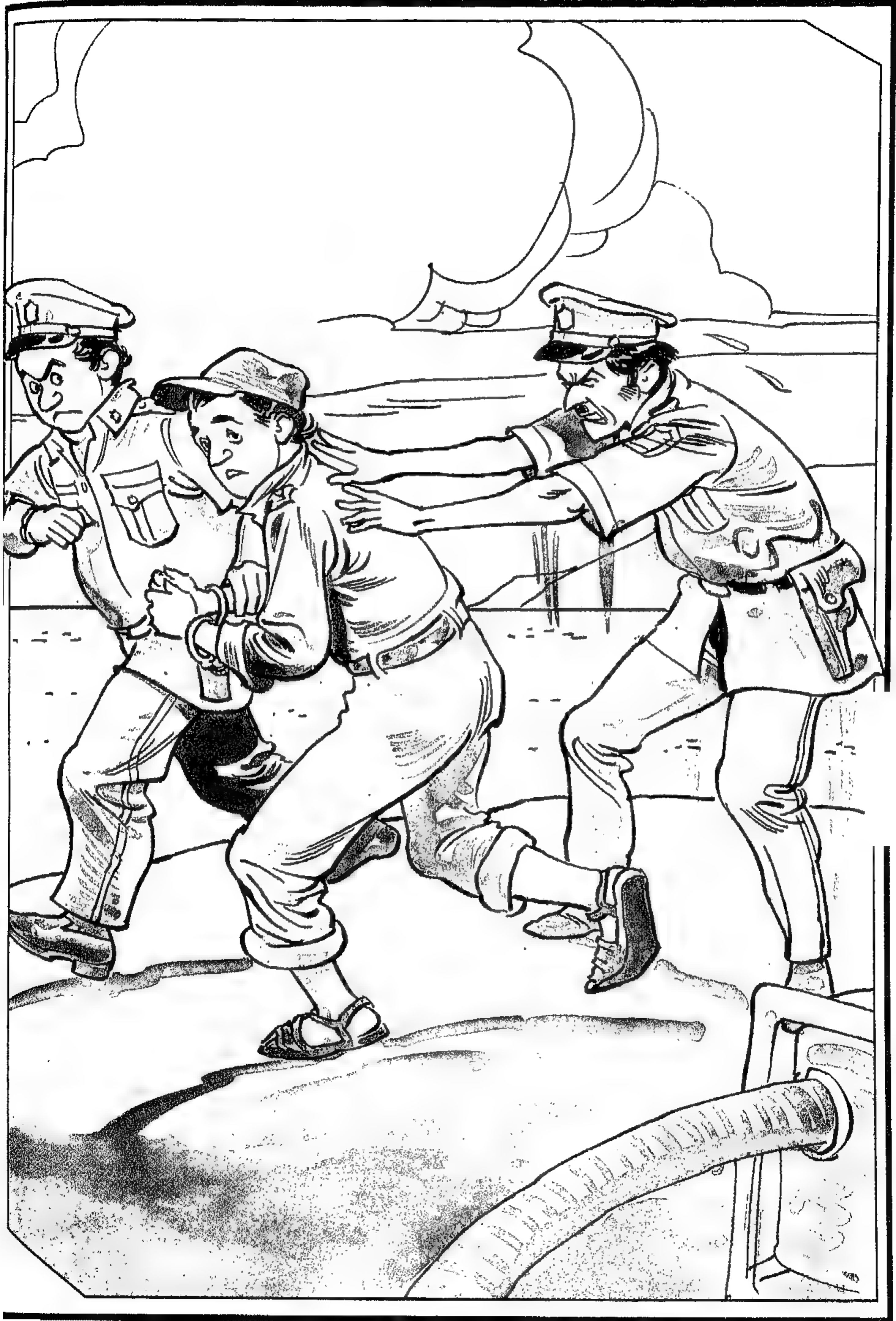
- هل تراهنُ ؟!

وشمَّ عبدُ القادرِ رائحةَ الغازِ، وسمعَ احتكاكَ (الكبريتةِ)
بجانبِ العلبةِ، فتركَ المضخةَ، ووقفَ يهْمُ بالفرارِ . . .
فأمسكَ بهِ الشرطيانِ، ووضعَا الغلَّ في يديه، وسحبَاهُ إلى
القسمِ.

أمَّا يونسُ الفاضليُّ فقد ركضَ حتَّى وصلَ إلى بيتِهِ، ودفعَ
البابَ، والتفتَ وراءَهُ لاهئاً ينظرُ هل تَبَعَهُ عبدُ الصميدِ . ووجدَ
أمَّهُ ترتَّبُ مائدةَ العشاءِ . ونظرَ في غرفةِ الجلوسِ، حيثُ يقعدُ
والدُّه قبالَةَ التلفزيونِ، فلم يجدَهُ . وسألَ أمَّهُ، فأجابتهُ بسؤالٍ :
- لماذا تريدهُ ؟

فحكى لها بسرعةٍ ما حدثَ لعبدِ القادرِ معَ عبدِ الصميدِ
النكدي، فقالتُ معلقةً على الشرطيَّ المشهورِ بحماقاتِهِ :
- ليسَ غريباً عنْ ذلكَ الديكُ الأعورِ المسلولِ العنقِ ! إنَّهُ ما
يفتأُ يجوبُ شوارعَ القريةِ كالعزَّةِ الضالةِ ولسانُ حالِهِ يقولُ :
«هل هناكَ مشكلٌ أو نوجدُهُ؟» !

وسألَ يونسُ أمَّهُ أينَ يمكنُ أن يكونَ أبوهُ قد ذهبَ ؟



فقالت: إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ لَهَا شَيْئًا كَعَادَتِهِ . وأضافت:

- لماذا لا تذهبُ بنفسِكَ إلى عميدِ الشرطة، وتحكي له ما حدث؟

وحينَ تردَّدَ يونسُ، قالت له:

- إذا لم تتجرأ عليه فاذهبِ إلى ابنه رضا؛ إِنَّهُ رفيقُكَ في المدرسة، ويرافقُكَ أحيانًا إلى البحيرة.

وخرجَ يونسُ يجري إلى دارِ العميدِ الحاجِّ الصادقِ أومليل .
وعلى بابِ الدارِ حكى لولدهِ رضا الحكاية، فقالَ هذا مستاءً:

- قد تكونُ هذهِ آخرَ أفاعيلِ عبدِ الصمدِ النكد! فقدُ وجدْتُني
أحكي لوالدي عما تفعلُهُ أنتَ والبناءُ عبدُ القادرِ لإنقاذِ
أسماكِ البحيرة... .

- ولكن، كيفَ عرفتَ؟

- حكى لي عبدُ القادرِ قبلَ نزولهِ بالمضخة، وكنتُ أحاولُ إقناعَ
الوالدِ بالتدخلِ لدى رئيسِ قسمِ الإطفاءِ، لإعارتنا
مضختهم القوية، لأفاجئكما بها.

ودخل رضا ليخبر والده، ولم تمض إلا بضعة دقائق حتى خرج العميد وعود التخلل بين شفثيه، وهو يعقد أزرار ستره بذلته الرسمية . . حيا يونس باسمه، وسأله عن والده، وركب سيارة الجيب التي كانت واقفة بالباب، وأركب معه الغلامين، وانطلق نحو المركز.

وما اقتربوا منه حتى ترامى إليهم أزيز كأزيز النحل، كان يعلو حتى على هدير المحرك! وفتح الثلاثة النوافذ فإذا الأزيز أصوات غلمان وأولاد آتية من جهة مركز الشرطة. ولولا أن الجنائز لا تكون ليلاً لظنوا أنه موكب جنازة.

وحين دخلوا الشارع الذي يقع فيه المركز لاحظت لهم مشاعل وشموع كثيرة يحملها صغار متجمهرون على باب المركز وهم يقرأون المعوذتين بصوت واحد:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ * . بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ
الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ
الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ .

وابتهج يونس ورضًا ، واشتدَّ عضداهما حينَ تعرَّفَا الأولادَ ؛
كانوا جميعًا من أبناءِ مدرستِهِمْ . وتساءَلَ العميدُ :
- يا تُرى ، منَ أخبَرَ هؤلاءِ ؟

فقالَ يونسُ :

- لا أدري . لعلَّهُم كانوا في متداهُهم على الشاطئِ ، ورأوا
عبدَ الصمدِ يقتادُ عبدَ القادرِ إلى المركزِ فقرَّروا تنظيمَ
التظاهرةِ .

فقالَ العميدُ :

- هذه أولُ تظاهرةٍ منَ نوعِها تشهدها هذه القريةُ الهادئةُ !
ولولا ذلكَ الطائشُ عبدُ الصمدِ لما سُجِّلَتْ هذه السابقةُ !
وفسَحَ الأولادُ الطريقَ أمامَ جيبِ العميدِ ، وأحاطُوا بهِ
يهتِفُونَ بحياتِهِ وحياتِ العدلِ . وخرجَ هوَ منَ السيارةِ يحْيِيهِمْ
ويطمئنُّهُمْ . وصعدَ الدرجاتِ الثلاثَ إلى بابِ المركزِ . وفوجئَ

به مقفلاً، على غير عادته، وبصوت صراخ عبد القادر البناء
واستغاثته يأتیان من داخله . فطرق الباب طرْقاً عنيفاً، وصاح :
- افتح ، يا نكد!

وبعد لحظة انتظار وترقبٍ انفتح الباب على مصراعيه،
واندلقت منه موجة ماء باردٍ صدمت وجه العميد، وأغرقتُه من
قُبَعَتِهِ إلى حذائه! وارتعش الرجل بشدة وبصق الماء من فيه،
ووقف ينظر إلى بذلته الرسمية وهي تقطر ماءً، وأخذ يمسح
وجهه . وجاءه صوت عبد الصمد:

- آسف، يا سيدي! كنت فقط أريد أن أطفئ النيران التي جاء
بها الغوغاء لإحراق المركز. . .

ونظر العميد إلى الشرطي الأحمق، وهو يتميز من الغيظ،
ولا يدري من أين يبدأ بالرد عليه، ولا ماذا يفعل به . . . كان
في مثل هذه الحالات يردّد في سرّه الآية الكريمة: ﴿والكاظمين
الغيظ والعافين عن الناس﴾، يقرأها ثلاث مرات حتى لا
يتسرّع ويتصرف عن غضبٍ.

وسمع الشرطيّ الأحمق يقولُ له، وكأنَّ شيئاً لم يقعَ :

- تفضّلوا، يا سيدي . جئتم في الوقتِ المناسبِ . . . فقد
قبضنا على أكبرِ مجرمٍ في البلادِ!

وأشارَ إلى عبدِ القادرِ الذي كانَ نصفَ معلقٍ بالسقفِ ، وقد
ارتفعتْ ساقاهُ ، ولم يبقَ على الأرضِ إلا رأسُه وكتفاهُ ، وهو يئنُّ
ويستعطفُ جلاديه . . .

وسيطرَ العميدُ على أعصابِهِ ، وقرَّرَ مسايرتَهُ ، وقد ظنَّ نفسهُ
في حُلُمٍ عجائبيٍّ !
فسألهُ :

- ماذا فعلَ ؟ هل قتلَ أحداً ؟

- بل أكثرَ من ذلكَ ، يا سيدي !

- هل قتلَ عدَّةَ أشخاصٍ ؟

- بل أفضَحَ من ذلكَ !

- ماذا فعلَ إذنَ ؟

- إِنَّهُ تَحَدَّى السُّلْطَةَ ، وَقَاوَمَ الْاِعْتِقَالَ . وَمَنْ يَقَاوِمُ الْاِعْتِقَالَ
يُهْدِرُ دَمَهُ .

وَأَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ كِنَاشَ الْقَوَانِينِ وَالتَّعْلِيمَاتِ ، وَمَدَّهُ إِلَيْهِ وَهُوَ
عِبَارَةٌ عَنْ كِتْلَةٍ عَجِينٍ مِنَ الْوَرَقِ الْمَبْتَلِّ ، وَانصَرَفَ هُوَ إِلَى الْحَبْلِ
الْمُتَدَلِّيِّ مِنْ خَرَصَةٍ بِالسَّقْفِ وَإِلَى رَجُلَيْنِ عَبْدِ الْقَادِرِ ، وَأَخَذَ
يَسْحَبُهُ لِيَعْلَقَ الْأَسِيرَ .

وَكَانَ الْغَيْظُ قَدْ بَلَغَ بِالْعَمِيدِ مَنْتَهَاهُ ، فَقَالَ لِعَبْدِ الصَّمَدِ
بصوتٍ هَادِيٍّ حَازِمٍ :

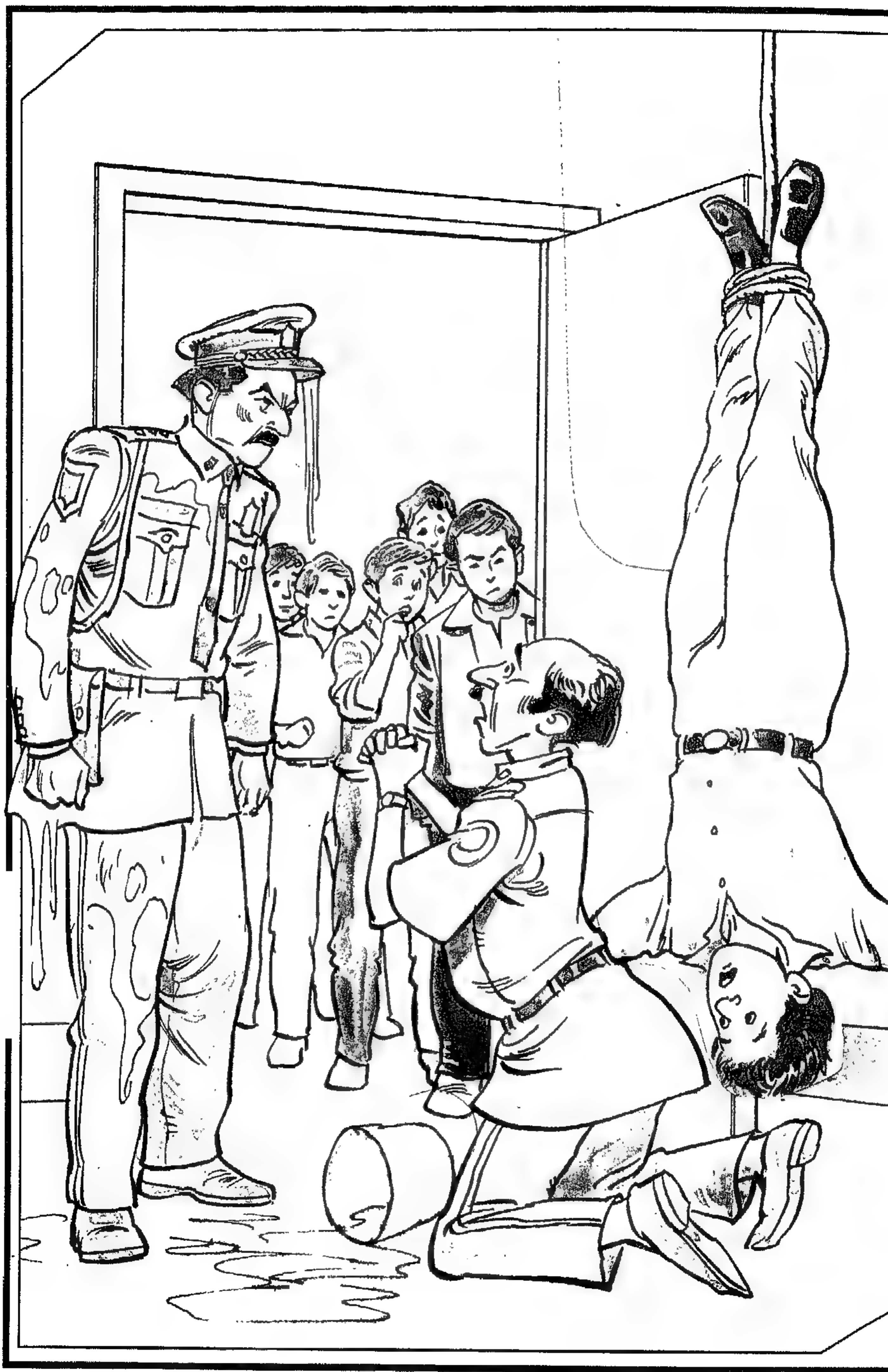
- اَتْرُكْ ذَلِكَ الْحَبْلَ .

- مَاذَا ، يَا سَيِّدِي ؟

- قُلْتُ لَكَ ، اَتْرُكْ ذَلِكَ الْحَبْلَ .

فَقَالَ عَبْدُ الصَّمَدِ ، وَقَدْ زَادَتْ عَيْنَاهُ جَحَوظًا وَعَنْقُهُ طَوْلًا ،
وَارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهِ ابْتِسَامَةٌ بِلَهَاءٍ ، وَهُوَ يَقْدِّمُ الْحَبْلَ لِلْعَمِيدِ :

- تَرِيدُ أَنْ تَعْلِقَهُ أَنْتَ ، يَا سَيِّدِي ؟ هَاكَ ، تَفَضَّلْ !



- أريدك أن تطلق سراحه .

- تريدني أن أطلق سراح هذا المجرم العُتْلُ الخطير ؟ ! لا بُدَّ
أنك تمزح !

وأطلق ضحكةً ديكيةً مفتعلةً ، وعادَ إلى جذبِ الحبلِ بهمةٍ
وحزمٍ .

وهنا فسخَ العميدُ حزامهَ الجلديَّ العريضَ ، ورفعَهُ وهوى به
على ظهرِ الشرطيِّ المجنونِ ، وهو يسبُّ المهنةَ التي جمَعتهُ بمثله !

وفوجئَ عبدُ الصمدِ بثورةِ العميدِ ، ولم يفهم لها سبباً في
منطقه العجيبِ ، فارتَمَى على قدمَيِ العميدِ يريدُ تقبيلَهُمَا . .

والعميدُ يتعدُّ ويضربُ بعنفٍ انتقاميٍّ ! وحينَ أدركَ
عبدُ الصمدِ أنَّ رئيسَهُ غاضبٌ منه فعلاً وأَنَّه لن يتوقفَ عنِ

الضَّربِ ، زحفَ بينَ ساقَيْهِ على يَدَيْهِ وركبتيهِ صوبَ البابِ ،
وخرجَ هارباً . . . وتبعَهُ العميدُ ، وسطَ هتافِ الأولادِ

وتشفيهِم من الشرطيِّ القاسي المجنونِ ، والحزامِ الغليظِ يهوي
على ظهرِهِ ورأسِهِ ، وهو يرسلُ أصواتاً عجيبةً مُضحكةً . وأخيراً

ارتقى على الأرض، واستلقى على قفاه، وأخذ يصيحُ :

- سيدي، أمهلني، وأنا أعترفُ لك !

وتوقفَ العميدُ الهائجُ عن الضربِ حينَ سَمِعَ كلمةَ الاعترافِ . فقامَ عبدُ الصَّمدِ، ونفضَ عن بذلتهِ الترابَ وقالَ :

- سيدي، أريدُ أنْ أخبرَكم بأنَّ ضَرْبَ رجلِ الشُّرْطَةِ ممنوعٌ في القانونِ، وخصوصًا أمامَ الناسِ .

فهمَّ العميدُ لفرطِ غيظهِ بالارتقاءِ عليه وغرزِ أسنانهِ في رأسِهِ، ولكنه وقفَ يستغفرُ اللهَ، ويردّدُ آيَةَ المعهودةِ، ثمَّ قالَ :

- معكَ حقٌّ ! لذلكَ سأعفيكَ مِنْ عَمَلِكَ في الشرْطَةِ ! فأنتَ منذُ اللحظةِ مفصولٌ ومبعدٌ ومطروءٌ ! ولنْ أخالفَ القانونَ إذا نزلتُ فيكَ بحزامي هذا ضربًا وجلدًا وخبطًا ودكًا وهلكًا . . .

فقاطعهُ عبدُ الصمدِ، وهو يركضُ مصحّحًا :

- بلْ إهلاكَ، يا سيدي، وليسَ هلكًا . . . إنَّهُ مِنْ فَعْلٍ رباعيٍّ !

فانفجر الأولاد ضحكًا من غرابة أطوار الشرطي وأفعاله
العجيبة .

وتوقّف العميد عن مطارديته ، وأخذ يحرك رأسه تعجبًا من
طبع هذا المخلوق الغريب .

وأخيرًا تبسّم ، وانضمّ إلى الأولاد في ضحكهم ، رغم غضبه
السابق وابتلال بذلته .

وتوقّف عبد الصمد عن الركض ، وعادَ بعد أن رأى العميد
يضحك ، ماذًا يديه إليه ليغلّهما . وألقى رشيد الغلّ في يدي
رئيسه السابق ، وهو يعتذر له ، وعادًا به متبوعين بتظاهرة
الأولاد إلى المركز ، حيث وضعاه في غرفة الحجر ، وهو يغني :
«مظلوم أنا والله مظلوم !» .

وأفرج العميد عن عبد القادر البناء ، واعتذر له عن
تصرفات عبد الصمد الخرقاء ، وأمر رشيدًا بأخذه في سيارة
المركز إلى البحيرة ليستأنف عمله في ملئها .

وخرج إلى حيث كان الأولاد ينتظرون ، فشكرهم على



اهتمامهم بشؤون القرية ، وعلى غيرتهم على بيتها الطبيعيّة .
وطلب منهم أن يأتوا في اليوم الموالي إلى البحيرة ، بعد صلاة
العصر ، وقال لهم : «عندي لكم مفاجأة سارة !» .

وبعد صلاة عصر اليوم الموالي ، حضر يونس إلى البحيرة
قُبَيْلَ الموعدِ بقليل ، وألقى إلى الأسماك بما جاء به من بقايا
الطعام ، وانضم إليه بعض رفقائه ، ووقفوا يتفرّجون عليها ،
وهي تتسابق إليه ، وتقفز فوق الماء .

ولم تمض نصف ساعة حتّى كانت ضفاف البحيرة قد
امتلأت بالأولاد ؛ فقد حضر جميع من شاركوا في تظاهرة الليلة
السابقة ، وجاءوا معهم بأصدقائهم ورفاقهم الذين لم
يحضروا ..

وبينما هم كذلك ، إذ حضر العميد ومساعدُه رشيدٌ في سيارة
المركز ، تتبعها سيارةُ المجلس البلدي ، وبها رئيس المجلس
وعددٌ من أعضائه .

وتقدّم رئيس المجلس ، وكان شابًا ممتلئًا حيويّةً ، فرفع يديه

تحيةً للأولاد المتجمهرين حول البحيرة، وصعد فوق صخرة كبيرة ملساء، وقال:

«أبنائي الأعزاء، لقد أخبرني السيّد رئيس الشرطة بما حدث بالأمس، وبالدور الشجاع الذي قام به أحد رفاقكم، وبالجهد الذي بذله هو وأفراد أسرته، بمساعدة عبد القادر البناء، لإحياء هذه البحيرة الشاطئية الجميلة وإنقاذ أسماكها من الموت؛ كل ذلك حباً منه في البيئة، ورغبة في المحافظة عليها صحيّة سليمة. وهي مبادرة حميدة تستحق كل تنويه وتقدير وتشجيع. لذلك رأى المجلس أن يطلق اسم أحد أبطال الكفاح من أجل البيئة عليها؛ جزاءً لجميع من شاركوا في عملية الإحياء والإنقاذ...».

وأشار إلى أحد عمال البلدية ورائه، فجاء هذا بلافتة مغطاة بقماش على عمود من حديد، ركزها في ثقب فوق الصخرة، ونظر إلى الأولاد وقال:

«أريد متطوعاً منكم لإزاحة الستار عن اللافتة»، وأشار إلى يونس، وقال له:

«أنت، صاحب القميص الأخضر، تعال ساعدني من فضلك...»

وصعد يونس الصخرة، وأمسك بالشريط الحريري،
وسحبهُ، فإذا اللافتة مكتوبٌ عليها:

بُحَيْرَةُ يُونُسَ الْفَاضِلِيِّ

يُمْنَعُ الصَّيْدُ وَغَسَلُ الْأَشْيَاءِ هُنَا

ولم يصدّق يونس عينيه... وعلا هتافُ الأولادِ
وتصفيقُهُمْ...

وأخرج رئيسُ المجلس البلديّ ورقةً ملفوفةً من جعبة
نحاس، وفتحها وقرأ:

«بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم، ابتداءً من اليوم، الجمعة
الخامس من ربيع الثاني عام ١٤١٦ هـ، الموافق فاتح سبتمبر
١٩٩٥ م أصبحت بحيرة الصخرة تعرفُ ببَحيرةِ يُونُسَ
الفاضليّ؛ اعترافاً بفضله وجميله عليها وعلى حياة الأسماك
والطحالب بها، وتشجيعاً لجميع الأولاد والبنات على الاقتداء
به. وهذه شهادةٌ رسميةٌ له بذلك».

ولفّها بعناية ، وأعادها إلى جعبتيها ، وسلّمه إياها ، وصافحه
بحرارة . . .

ووقفت غُصّةٌ حاميةٌ في حلقِ يونسَ من التأثّر ، ولم يذر ما
يقول غيرَ ترديده :

«شكرًا ، شكرًا لك ، يا سيدي . . شكرًا لكم جميعًا . . .» .

وبعدَ يومينِ ظهرتْ صورتهُ في صحيفةٍ محليةٍ ، معَ مقالٍ
يحكي قصةَ البحيرةِ ، ونقلتِ الصحفُ الوطنيةُ الكبرى الصورةَ
والمقالَ . . .

وبعدَ بضعةِ أيامٍ تسلّمَ يونسُ الفاضليُّ برقيّةً من منظمةِ
«السلام الأخضر» العالمية ، تهنّئُ فيها على مبادرتهِ ، وتعرضُ
عليه عضويّتها ، وتكوينَ خليةٍ من أصدقائه للدعوة لمبادئها ،
ونشرِ الوعي البيئي بين الصغار والكبار في محيطه .

ومنذُ ذلكَ اليومِ تغيرتْ نظرةُ يونسَ الفاضليِّ إلى كلّ ما حوله
من نباتٍ وحيوانٍ وحتّى الفراشاتِ والحشراتِ ، وأصبحَ وقتُ
فراغه الذي لم يكنْ يدري ما يفعلُ به عامرًا بالنشاطِ المفيدِ ،

كالاجتماع بأعضاء خليته الفتية وقراءة كتب السلام الأخضر،
عن تجارب الآخرين ومغامراتهم الشاقة لإنقاذ الحيتان والفهود
والطيور المهددة بالانقراض، ومحاولة تطبيق ما يمكن تطبيقه
من توصياتها، والمساعدة على تكوين خلايا بيئية جديدة في
المدن والقرى المجاورة، والبعيدة أيضا.

و ذات ليلة استيقظ يونس على هدير الأمواج، فقفز من
فراشه، وفتح النافذة على الشاطئ الصخري، ووقف يتفرج
عليها، تحت ضوء القمر الباهر، وهي تفتح الجرف الفاصل
بين البحر والبحيرة، وتنصب داخلها، وتملؤها، بل وتغطيها
تماما . . . وخدرة المشهد الرائع. وفكر في أصدقائه الأسماك،
وهي تحتفل بعودة ماء البحر النقي وبهدير الموج المطرب،
وتحمد الله على أنه لم يتركها.

هذه السلسلة

تضم هذه السلسلة مجموعة
مختارة من القصص والروايات
التربوية التشويقية المختارة
للكاتب المغربي المعروف أحمد
عبد السلام البقالي، الحاصل علي
جائزة «المنظمة العربية للتربية
والثقافة والعلوم».



وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس،
وخياله الخصب، وخطوته السريعة التي تنقل القارئ من
مفاجأة إلى أخرى، ومن عالم إلى آخر، يقرب للقارئ
أحداث الماضي البعيد، ويلقي الأضواء
المستقبل، بالبراعة نفسها التي يتناول بها الحاء
فالبقالي من أروع كتاب القصة البوليسية ا
الحديثة للشباب في العالم العربي.

Bibliotheca Alexandrina



0359536

مكتبة

736

28s

00